شَجَرَةُ

الأَنبِيَاءِ

- ١١ -

أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الصابر الأواب

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٧٣٥، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥	منصور الرفاعى عبيد.
م ن أ ى	أيوب عليه السلام: الصابر الأواب/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.
	٢٤ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛١١)
	تدمك : ٥ ـ ١١٣٧ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
	١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٨٢٠٩ / ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

عشْنَا معَ أنبياء الله فى القصصِ السَّابقَة، وعرفْنَا أنهم جميعًا قدْ بَعَثهُمُ اللهُ إلَى النَّاسِ لهدايتهِمْ، وإرْشَادهِمْ إلَى دينِ الحقِّ والتَّوحيد، وكُلٌّ منهُمْ قَد احتملَ منَ العذاب، ولَقىَ منَ المعَاناة مَا يَضعُفُ عَن تحمِّله البشرُ العاديُّونَ، ولكنَّهمْ قَد احتملُوا ذَلكَ بكُلِّ قُوة ورباطَة جَأْشٍ حتَّى بلَّغوا رسالاَت الله، ونصَحُوا لأقوامهِمْ، وتركُوا ذكرَهُمُ الخَالدَ إلَى أنْ تقُومَ السَّاعةُ.

ونَعيشُ فى قصتِّنا هذه معَ أُستاذ الصَّبرِ الأول، ومُعلِّم البشريَّة كيفَ يَكونُ الصَّبْرُ الجميلُ، والحَمدُ لله عَلَى ما يُريدُ ويَفعَلُ، والشُّكرُ لَهُ فى السَّراءِ والضَّراءِ.

فالصَّبرُ علَى المكَاره يُمكنُ تحمُّلُهُ، والصَّبرُ علَى الشَّدائد والحوَادث العَارضة يكُونُ لهُ الأجرُ والجزاءُ الحسَنُ، أمَّا الصَّبرُ علَى البلاَء والابتلاَء لمدة طَويلة منَ العُمرِ دُون يَأْسٍ منْ رَحمَة الله ولا تبرُّمٍ بما قَضَى جَلَّ شَأْنُهُ، فهذَا هُوَ الصبْرُ الَّذى يرفَعُ صَاحبَه إلَى الدَّرجَات العُلاَ، ويَسمُو به إلَى منزلةٍ لاَ ينالُهَا إلاَّ عبادُ الله المقرَّبونَ.

واليَوْمَ نَلتَـقى مَع نَبىٍّ منْ أَنبيـاء الله أَرسلَهُ اللهُ عَزَّ وجلَّ بالتوحـيدِ والدَّعوة إلَى عبادة الله عزَّ وجلَّ، وَأرسَلَهُ أيضـًا ليُعلِّمَ البشريَّةَ دُروسًا فى الصَّبر، الصَّبرِ عَلَى الابتـلاء فى المال، والصَّبرِ عَلَى الابتلاءِ فى الأَولاَد، والصَّبرِ عَلَى الابتلاَءِ فِى الجَسدِ، وَمعَ ذلكَ كُلِّه لَمْ يهتزَّ إيمَانُهُ، ولَمْ يفقدْ ثقتهُ برَحمة الله لحظةً واحدَةً.

إنَّه نَبىُّ الله أيوبُ.. فَلْنعِشْ معَهُ فِى صَـبْرِه، وشُكْرِه، وَنتأمَّلْ كَيفَ كَانتْ عَاقبةُ الصَّبرِ الجميلِ.

هُوَ فَرعٌ كَرِيمٌ مِنْ شَجرةِ الأَنْبيَاءِ ينْتَمِى إلَى إسحَاقَ بنِ إبراهيمَ عَليه السَّلامُ.

كَانَت أمُّهُ إحـدَى ابنتَىْ لُـوط عليه السَّلامُ، اللَّتين نَجَّـاهُمَا اللهُ مَعَ أَبيهِـمَا عندَ تدميـرِ قَريةِ سَدومَ الَّتى حَلَّ عَـليهَا غَـضَبُ الله، فلعنَهَا اللهُ وَأمطرَ عليْهَا مَطرَ السَّوء فكانتْ منَ الهَالكينَ.

وَكَانتْ زَوجَـتُهُ هى ليَّـا بنتُ يَعـقوبَ بنِ إسحـاقَ عَليهِـمُ السَّلامُ، وَهكَذَا كَانَ أيوبُ نَـبىَّ الله، وَأمُّه بنتَ نَبىِّ الله، وزوجَتُـهُ بنتَ نَبىِّ الله، وَجدُّه إسْحَاقَ نَبىَّ الله، وَجدُّهُ الأَكـبرُ أَبَا الأَنبياءِ وخَليلَ الرحمَنِ إبرَاهيمَ عَليه السَّلامُ. فَـهوَ نَبىٌّ، حَفيدُ نَبىٍّ، عَاشَ فِى بَيتٍ يَسطعُ فـيه نورُ النبوَّةِ كَابرًا عَنْ كَابرٍ.

أيوبُ في سرَّائه

عَاشَ أيوبُ عليه السَّلامُ في قرية تُسمَّى (البَثينة) بينَ دمشق وأذرعات بأرض الشَّام، وقضى حياتَهُ في عبادة الله وشكره، فأسبغَ اللهُ عليه منَ النِّعم، وأغدقَ عليه منَ الخيْرات الكثيرَة، والأموال الوفيرة، والأنعام والعبيد، مَا لم يكنْ عندَ إنسان في زمنه، إذ يقولُ المؤرِّخونَ أنه كَان يملكَ (البثينة) كُلَّهَا، وكَانتْ قَريةً كبيرةً جداً، كَانَ يمتلكُهَا بما فيهَا منْ أرض ومبَان، وبكلِّ حُدودهَا الشَّرقيَّة والغربية.

وكَانَ ممَّا يملكهُ في هذه القرية آلافُ الأغنام برُعَاتهَا، ومئَاتُ الأفدنَة منْ أجْود الأراضي الزِّراعيَّة يَقُومُ برعَايتها خمسُمائة عَبد، لكلِّ عَبد زوجتُهُ وأولادُهُ، فكانتْ أموالُ أيوبَ وعَبيدُهُ تملأُ القرْيةَ كُلَّها.

وإذَا كَانَ الإنسَانُ يُطغيه المالُ، ويُبطرُهُ الغنَى، قدْ تغرُّهُ الحياةُ الدُّنْيَا، ويُغريه الشَّيطانُ بالوقُوع في المعَاصي وجُحُود النِّعمة والتنكُّر لفضْل الله عليه، فَإنَّ أيوبَ لَمْ يكُنْ كَذلكَ، بَلْ كَانَ عَبدًا صَالحًا، يَعبدُ اللهَ آناءَ اللَّيل وأطرافَ النَّهار، ويقومُ لله حَامدًا فَضلَهُ، شَاكرًا أنعُمَهُ عَلَيْه، دَاعيًا رَبَّه أنْ يجْعَلَ عَاقبَته الخيرَ والجزاءَ الحسَنَ.

ولَقَدْ رَضيَ اللهُ عَنْ أيُّوبَ، وعَنْ شُكره إيَّاهُ، وتقبَّلَ منْهُ عبادَتَهُ، وأثنَى عَليه الثَّناءَ الجميلَ، وأمرَ الملائكَةَ بالصَّلاة عليه، وصَلاةُ الملائكَة عَلَى الإنسَان استغفَارٌ ودُعاءٌ وثنَاءٌ، فكَانَ ذلكَ بُشرَى لأيُّوبَ ببلُوغه أعلَى الدَّرجَات وأرقَى المنَازل.





الابتلاءُ العظيمُ

لَعلَّنَا نَذكرُ عندَمَا سَرَدْنا قصَّةَ آدمَ عليه السَّلامُ، كَيْفَ أنَّ إبليسَ قدْ أَخذ عَلَى نفسه عَهْدًا أمامَ الله بأنَ يُغوى أَبنَاءَ آدم، ويُغريَهُم بالانْحراف عَن الطَّريق المُسْتقيم، وهَا هُوَ ذَا يتدخَّلُ فى حَياة أيُّوب عَليه السَّلامُ، يُريدُ أنْ يَجعلَهُ منَ الجَاحدين، وها هُوَ الخُبثُ الشَّيطَانيُّ يريدُ أَنْ يطفُو ليعكِّرَ صَفْوَ هَذه الحَيَاة الشَّاكرَة الحَامدَة الرَّاضيَة، فَمَا أنْ سَمعَ الشَّيطانُ، الَّذى هُوَ إبليسُ، مَلائكَةَ الله تُصلِّى عَلَى أيُّوبَ، ومَا أنْ سَمعَ ذكرَ الله لَهُ فى الملأ الأَعلَى، والثَّناءَ عليه بينَ الملائكَة حَتَّى امْتلأَ قلبُهُ بالحَسد والحقْد، وراحَ يفكِّرُ فِى طَريقَة يُمكنُ بِهَا أَنْ يَفتنَ أيُّوبَ عليْه السَّلامُ ويسير به فى طَريق الخُسرَان والبوَار.

وَهدَاهُ تَفكيرهُ الشَّيطانيُّ أن يسأَلَ اللهَ عَزَّ وجلَّ أَنْ يُسلِّطَهُ عَلَى أيوبَ ليفتنَهُ عَن دينه، وَليَضعَهُ فى تَجربَة وَامتحَان ليرَى هَلْ عبادَتُهُ خَالصةٌ لله تَعَالَى، وهَلْ سَتبقَى هذه العبَادةُ كمَا هى بنفس الدَّرجَة والرِّضَا إذَا مَا أُصيبَ بأَىِّ ضَرر أوْ أذَى. وَالحَقُّ أنَّ اللهَ سُبحَانَهُ وتعَالَى عَالمٌ بمَا كَانَ، وبمَا سَيكُونُ، وأنَّهُ بيده كُلُّ شَىْءٍ ولاَ يَمْلكُ النفعَ والضرَّ إلا هُو جَلَّ شَأْنُهُ، ولأنَّهُ أَرادَ أَنْ يُظهرَ للمَلائكَة وَلإبليسَ وللبشَريَّة عَامَّةً، أَنَّ من عباده مَنْ يَعبدُهُ مُخلصًا لوجْهه، وَأَنَّ منهُم مَنْ يَجبُ أَنْ يَكُونَ مثلاً لبقيَة العبَادَ فى الصَّبر والرِّضَا، والحَمْد والشُّكر، فى السَّرَّاء والضَّرَّاء، والعَافية وَالابتَلاء، لذلكَ أذنَ اللهُ لإبليسَ أنْ يُوقعَ أيُّوبَ فى الامتحَان، فَسلَّطَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلى أموَاله دُونَ جَسَده أو عَقْله، فكَانَ ذلكَ هُوَ الابتلاءُ الأولُ، وَفرحَ إبليسُ بهَذه الخطْوة الأولَى فى طَريق الصَّبر الطَّويل الَّذى يَقطَعُهُ مَعَ أيوبَ عليه السَّلامُ، وَظَنَّ إبليسُ وَجنودُهُ أنهُمْ قَادرُونَ عَلَى مَا يُريدُونَ، وَلكنَّ الإيمَانَ الحقَّ قُوةٌ لاَ يهزمُهَا كَيدُ الكائدين وَلَوْ كَانُوا عُتَاةَ المردَة وَالشَّياطين.



جَمَعَ إبليسُ عَفاريتَ الجنِّ مِنْ كُلِّ مكَانٍ وَقال لَهم:

مَاذا عندكُمْ مِنَ القُـوة والمعرفَة، ووَسـائِلِ الدَّمار والكَيْـد؟ إننى قَدْ سُلِّطْتُ عَلَى مَال أيوبَ، وَعليكُمْ أَنْ تكُونوا فى مُنتهى اليَـقَظة، فأجمعُوا كَيدَكُمْ ومكرَكُمْ، وأَعينُونى بقوَّة لنجعلَ أيوبَ مِنَ الخَاسرينَ.

ضَحكَ الشَّياطينُ وعَفاريتُ الجنِّ وقَالُوا: نَحنُ أُولُو قُوة، وذَوُو بأْس شَديد، ولَديـنَا القُدرةُ عَلَى تَدمـير كُلِّ شَىْء، وسَوفَ تَرَى كَـيفَ نَصبُّ المصَـائبَ الفَادحَـةَ عَلَى أَموالِ أيوبَ، بَطريقٍ لاَ يَسـتطِيعُ أَنْ يصبـرَ عَلَى مُواجهتهَا أَقوَى الرِّجال.

قَال إبليسُ: إذنْ فَاذهبُوا وأرونى بَأسكُمْ وقوَّتكُم الَّتى تَزعمُونَ، وَلاَ تَعودوُا إلىَّ إلا بعدَ التَّدمير الكَامل والهَلاك الشَّامل لكلِّ ما يمْلكُ أَيوبُ، وَلننظُرْ مَاذَا تفيده عبادَتُهُ، وكيْفَ سَيَـتَقَبَّلُ صَدمةَ الفقْرِ المدقعِ، بعْدَ الغِنى والجَاه والسُّلطَان.

وَانتشرَ أعوانُ إبليسَ كَمَا يَنتشرُ الجرَادُ، فى كُلِّ مكَان يعلَمُونَ أَنَّ فيه شيْئًا يملكُهُ أيوبُ، وفى زَمن قَليلٍ كَـانَ أيوبُ واحدًا منَ الفقَراء الَّذينَ لاَ يملكُونَ شيـئًا، فَقدْ أَهلَكَ الشَّـياطينُ المالَ وأَضاعُوا الثَّـروةَ، ولَم يتركُوا مكانًا إلاَّ أَعملُوا فيه كُلَّ مَا يعرِفُونَ مِنْ طرائقِ التَّخريب.

وَنجحَ أَيوبُ فى الامتحَـان الأَول، وَاستَـقْبَلَ المحْنَةَ كَـمَا يَسـتَقْبـلُ المنحَـةَ، فَـللَّه ما أعطَى ولله مَـا أخذَ، والمؤمنُ الحقُّ، يقُـولُ إنَّ محْـيَايَ ومماتى لله رَبِّ العَالمينَ، يَعنى أنَّهُ فى حَياته ملكٌ لله، ولله مطلَقُ التَّصرُّف وَالتَّدبير فِيمَا يملكُ، وَهَو فى مَماته عَائدٌ إلى الله فمحَاسبُهُ عَلى ما قدَّمَ، وأخَّرَ، وفى الحَـالَيْن هُو رَاضٍ بقَضاء الله وقَـدره، لَيسَ لَهُ إلاَّ أَنْ يقُولَ: قدَّرَ اللهُ ومَا شَاءَ فَعلَ. وَبهذِهِ العَقيدَةِ الإيمانيَّة الثَّابتة وَاصلَ أَيُّوبَ عبادَتَهُ

لله عزّ وجلّ، فظلّ يحمده ويثني عليه الثناء كلّه، ولا يمنعه ما أصابه في ماله عن الحمد والاجتهاد في العبادة، والشكر على ما أعطاه ربّه، والصبر على هذا الابتلاء، واستقبال الضرّاء كما يستقبل السرّاء مؤمنًا بأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنّ كلاً من عند الله.

وكان هذا الإيمان والصبر مثار غيظ للشيطان وحقده، ومرّة ثانية يجمع جنده وأعوانه، ويسألهم عن رأيهم في ذلك الإنسان الّذي ردّ إليهم كيدهم في نحورهم، ولم يتأثر أدنى تأثر بإهلاك أمواله وتدميرها، ولم يبد منه إلاّ ذلك الصبر الّذي لا تقوم به الجبال الراسخات.

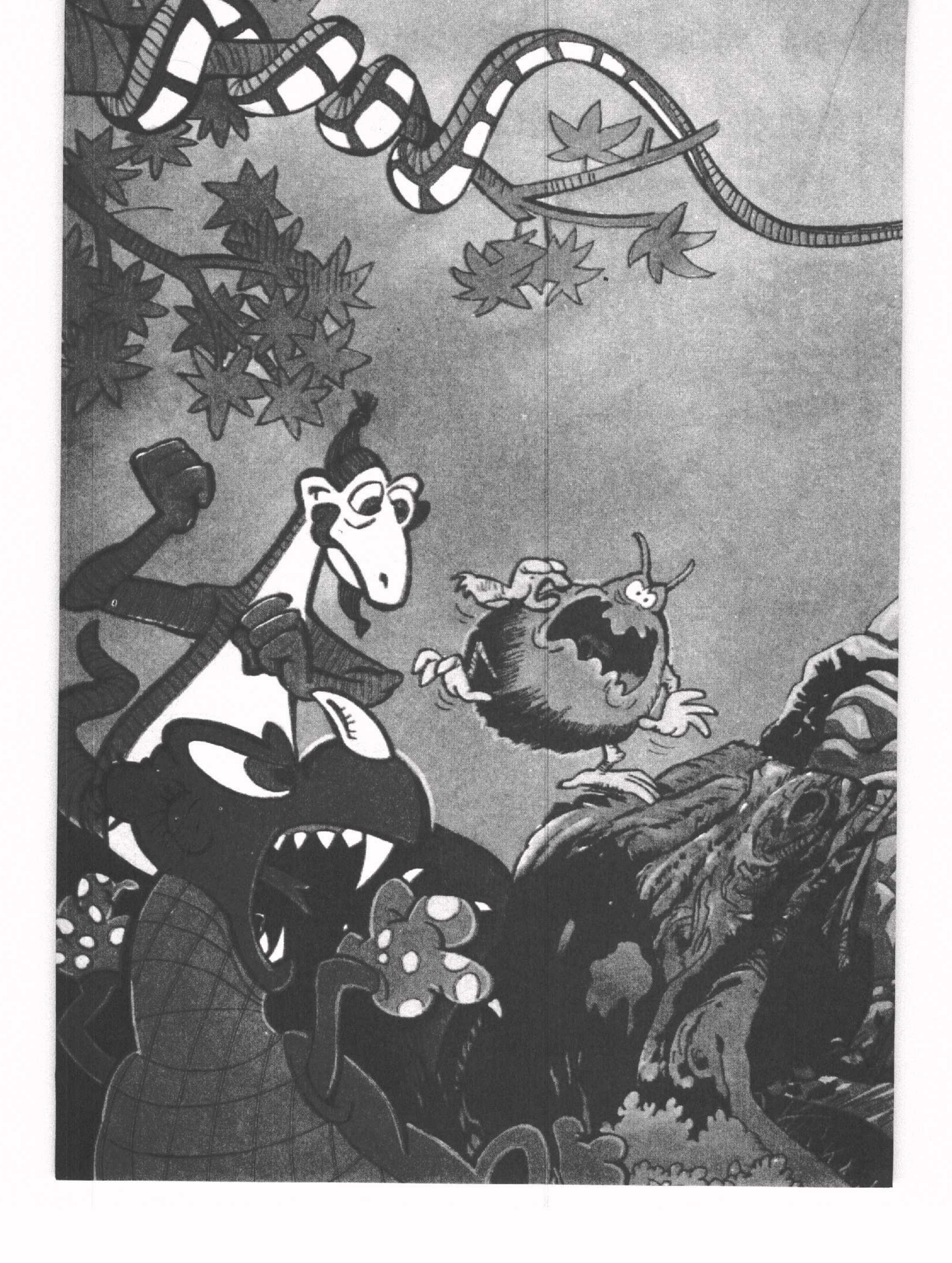
قالوا: إنه نوع من الصبر والإيمان الّذي لم نعهده في أحد من أبناء آدم قبل ذلك، ونحن ياكبيرنا طوع أمرك، وجنودك الّذين تعتمد عليهم في تنفيذ تدبيرك، فهات ما عندك من كيد وتدبير، وما علينا إلاّ التنفيذ والطّاعة.

قال: إنّ الأمر شورى، فماذا ترون؟

قالوا: إنّ الابتلاء في المال وحده لا يكفي، ولقد أذن الله لك أن تشارك أبناء آدم في الأموال والأولاد، ولا شكّ أننا إذا أتبعنا فتنة أيوب في ماله بفتنة ثانية في أولاده لهان علينا الأمر، فإنّ الابتلاء في الأولاد بعد الابتلاء في المال، يصرع أقوى الرّجال، ويهدّ قوّة أشجع الشّجعان، وليس إلاّ أن تأذن لنا في إيقاع الضّرر بأولاده أيضًا، ثمّ لننظر كيف يكون حال أيوب إذا رأى أولاده خامدين.

وأسرع إبليس يسأل الله عزّ وجلّ أن يسلّطه على أولاد أيوب، زاعمًا أنّ أيوب لا يزال يرائي في عبادته، وأنه إذا كان قد فقد المال فربّما





كَانَ عندَهُ الأَملُ أنهُ قادرٌ بقوّته وقُوة أَولاده أَنْ يَستعـيدَ ما فقَدَهُ، فَالصِّحةُ وَالأولادُ والاجـتهـادُ فِى العمَـل قَد تَعـودُ عَلَى الإنسَـان بالثَّمـرات الَّتى تُعوِّضُه عَـمَّا يفقدُهُ فى حياتـه، فَإذَا فَقَد أيوبُ أَولادَهُ أيضًا، فقـدَ معهمُ الأَملَ وَظهـرَ معدنهُ الحـقيـقىُّ، وَبدَا سُخطُهُ ويأْسُـهُ، وَاتضَحَ للنَّاسِ منْ حَولِه أنهُ لَمْ يكُنْ فِى عبادتِه منَ المخْلصِينَ.

وَأَذنَ اللهُ لإبليسَ فِى التَّسلُّط عَلَى أَولاد أيوبَ، وَأمرَهُ بألا يقـتربَ منْ جسَده، أو قلبه أو عـقله بأىِّ أذَى، ثُمَّ لينظرْ أىَّ إنسان سَيكونُ أيوبُ فِى ذلكَ الامتحَانِ الثانى هَل سيصْبرُ أم سَيكونُ منَ اليَائسينَ؟

لَم يكدْ إبليسُ يَسمعُ ذَلكَ الإذنَ منَ الله حَتَّى جمَعَ أَعوانَهُ وأَبلَغَهمْ بتلكَ المرحَلة الجَـديدة فى طَـريق الأَذَى، وَأنَّ عليْـهمْ أَن يُسلِّطُوا قُـواهُمُ الشّرِّيـرَةَ عَلَى أَولاد أَيوبَ، فَيهْـلكُوهم وَاحدًا بعـدَ واحد، بحَيْثُ يَـبقَى وَحيدًا لاَ مالَ ولا أولادَ، فَيظهرُ ضَعفُهُ الَّذى يبعدُهُ عَن طَرِيق العَابدينَ.

وتجمَّعَ جنُودُ إبليسَ أَجـمعُونَ، ويَالهَـا منْ معركَةٍ بينَ إنسَـان فَرد، وَطوائفَ شَيطانيَّة لديْهَا القُدرةُ علَى فَتح مَسالك الشرِّ منْ كُلِّ ناحيَةٍ، وفِى وَقْت قَـصيـرٍ قَـضَوْا عَلَى أبنَـاءِ أَيوبَ، وَظَنُّوا أنهُمْ بذلك أَصْـبحُـوا منَ المنتصرينَ.

ولَكنْ، يَا لَلعجَب!، إنَّ أَيوبَ لمْ يزلْ صَـابرًا مُحتسبًا، يَقـولُ بثقَة وَإيمَـان: إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجـعُونَ. نعَـمْ، إنَّا للهِ فى الحيَـاة، فنحْن لهُ وملكُهُ، ونحْن لهُ راجعون فِى الآخرَة فَيـغفرُ لمن يَشاءُ ويعذِّبُ منْ يشاءُ، فماذَا يمكنُ أن يفعلَ إبليسُ وجُنودُه أَمامَ إيمَانِ المؤمنينَ وثبَاتِ المخْلصِينَ.



وهَا هَو أيوبُ رَابطَ الجأْشِ ثَابتَ اليَقين لاَ يقُول إلاَّ ما يُرضى اللهَ سُبحانَه وتَعالَى، ورغَمَ كُلِّ هَذه الضَّراء لاَ يزَالُ منَ الصَّابرينَ.

وَلجأَ إبليسُ إلَى حيلَة يستدرُّ بهَا دُموعَ أيوبَ، فَجاءَهُ في صُورة ذلكَ الشَّيخِ الَّذى كَانَ يعَلِّم أوْلاَدَهُ ويُؤَدِّبُهُمْ، وأخَذَ يبكى ويصفُ مَا كانَ عليه الأولاَدُ من صحَّة، وأخلاق حَسَنة، وكَيفَ أنهُمْ كانُوا سَيصبحُونَ لَو عَاشُوا فَخرًا لَهُ وعزًّا، فَقدْ كَانُوا أفضَلَ الرِّجال، وأقواهُمْ وأذكَاهُمْ، وظَلَّ يُعدِّدُ لأيوبَ خصَالَ أولاده الحميدةَ حَتَّى رَقَّ قَلْبُهُ فبكَى، بكَى بقلْب الأَب المحبِّ لأبنائه الَّذى يعزُّ عَلَيه فقدُهُمْ، وأخَذَ حفنةً منَ التُّراب ووضَعَهَا علَى رأسه. وظَنَّ إبليسُ أنَّ ما فَعلَهُ أيُّوبُ هُوَ دَلائلُ اليَأْسِ والقُنُوط، ففَرِحَ بذلكَ أشدَّ الفرح، ولكنْ مَا هى إلاَّ لحَظاتٌ حَتَّى امتلأَ قلبُ أيُّوبَ بذكرْ الله، وعَرف أنَّه قَدْ سَهَا عَنْ ذكر ربِّه لحَظةً، فَتابَ إلى الله واستَغْفرَ منْ ذَنبه. وكَانَتْ ملاَئكَةُ السَّمَاء تَشهَدُ تلكَ المعرَكَةَ الدائرَةَ بينَ إبليس وجنده فى مُعسكَر الشَّرِّ، وأيوبَ وحدَهُ فى معسْكَر الخيْر واليقين، فَفرحَتَ الملائكَةُ بالتَّوبة والاستغفار، وعَادَ إبليسُ إلَى غَمِّه وحقده الَّذى لاَ يريدُ أنْ ينتهى.

واجتمعَ مُؤتمرُ الشَّرِّ للمرَّة الثَّالثة، وسَأَلَ إبليسُ أعوانَهُ أنْ يُفكِّرُوا فى حيلة أُخرى يهزمُونَ بهَا ذَلكَ الصَّابرَ المحْتسبَ الأوابَ. فَقالوا لَهُ: لَمْ يبقَ سوَى جسَد أيوبَ، فَلَو اعتلَّ هَذا الجسَدُ، فَسيسْقُط أيُّوبُ فى هُوة الجُحُود، ويموتُ كافرًا نَاسيًا كُلَّ مَا يدَّعيه منْ عبادَة وإخلاَص ويقين.

وبدَا عَلَى إبليسَ السُّرورُ باقْتراح جُنْده، وقَالَ: نَعمْ، إنَّ الأمراض عندمَا تَفتكُ بجسَد أيُّوبَ وهُوَ فى حَالته هَذه، لاَ مَالَ معَهُ يطلبُ به الدَّواءَ، ولاَ أولادَ يُعاونُونَهُ، وربمَّا نفرَ النَّاسُ منْ حوله خوفًا منَ العَدْوَى، فى هَذه الحالَة سَيدبُّ اليَأْسُ إلَى قَلبه، ويَقنَطُ منْ رحْمَة ربِّه، ويكونُ منَ الخاسرينَ.



وَمرَّةً ثالثةً يطلبُ إبليسُ الإذْنَ منَ الله أَنْ يسلِّطَهُ عَلَى جَسد أيوبَ، وليكُنْ ذلكَ هُو الابتلاءُ الأَخيرُ الذى نَرَى بعْدَهُ هَلْ سَيَنْجحُ أيوبُ ويتخرَّجُ فِى جامعَةِ الصَّبرِ بامتيازٍ أَمْ سيكُونُ منَ الرَّاسبينَ ؟

وَأذنَ اللهُ لإبليسَ بالتَّسلُّطِ عَلَى جسَدِ أيوبَ دُونَ قلبه وَعقْله ولسانه، وَأبعدَ اللهُ إبليسَ عَن القلبِ والعَقلِ واللسَانِ، لأنَّ القلبَ به تَستمرُّ الحيَاةُ، والحياةُ هى ميدانُ العمَلِ الذى يُحاسَبُ عليْه الإنسَانُ فالأمواتُ لاَ يعملُونَ، ولاَ حياةَ بلا قَلْبٍ، والعقْلُ هو أداةُ التَّفكيرِ وعليه مَدارُ التكْليف، فاللهُ سبحانَهُ وتَعالَى لاَ يحاسَبُ المجنونَ عَلَى ما يفعَلُ، واللّسانُ أداةُ النطقِ والذِّكْرِ الَّذى هُوَ مظهرٌ لما يُكنُّه الإنْسانُ فى نَفسه منْ تفكيرٍ.

وفَرِحَ إبليسُ، وظَنَّ أنهُ قدْ وصَلَ إلَى نهَايةِ المطاف، وتقدَّمَ إلَى أيُّوبَ، فوجَدهُ سَاجدًا يَذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ، ويتقرَّبُ إليْه بدعاءِ المنيبينَ وَاستغفَارِ العَابدينَ، فنفخَ إبليسُ فِى أنف أيُّوبَ نفخَةً، كَأنهَا السَّمُّ الزُّعافُ يَخرُجُ منْ أنيابِ شرِّ الأَفاعِى وسُودِ الثَّعابينِ، فاشْتعلَ جَسدُ أيوبَ، وكَأنمَا مَسَّتهُ لفحَة منْ نارٍ، فَاعتلتْ صحَّتُهُ، وانتشرَتْ عَلَى جلده القُروحُ والبثُورُ حتَّى أنهُ لَمْ يعُدْ قادرًا عَلَى القِيامِ منْ مكانه.

وتحوَّلَ ذَلكَ الجسدُ السَّليمُ، والوجْهُ الحسَنُ إلَى هيكلٍ آخرَ، وجسَدٍ ضَعيفٍ لا يَقْوَى عَلَى شَىْءٍ. وَرأَى النَّاسُ ذَلكَ فأبعدُوهُ إلَى مَكانٍ خارجَ القريةِ، وَامتنعُوا عَن تقديمِ أىِّ مسَاعدة لَهُ، إلاَّ زوجتَهُ التى أصرتْ عَلَى مُلازَمته، وَأبتْ أن تبتعدَ عَنهُ مهمَا كَانتِ الأَسبابُ.

كَانَ المرضُ يشمَلُ جسَدَ أيوبَ إلاَّ قلبَهُ وعقْلَهُ ولسانَهُ، وبهذه الأعضاء الصَّحيحة كَانَ أيوبُ مُستغرقًا فى ذكر الله وكَأنهُ لَم يصبْه شَىءٌ، وإذا تذكَّر مرضَهُ دَعا ربَّه دُعاءَ المؤمنِ الذى لايقنَطُ ولاَ ييْأسُ، وإنَّما يرْجُو رَحمةَ الله، ويتمنَّى أنْ يكشفَ عنه الضرَّ والأذَى، وكانَ يدْعُو اللهَ قائلاً:

رَبى.. لَقد مَسَّنىَ الشَّيطانُ بنُصْب وعذَاب.

وتمضى سَنَةٌ فى إثر أخْرَى، وأيوبُ لا يملكُ القدْرَةَ عَلى القيام ولاَ المشْى، وزوجَتُهُ بجانبه تُواسيه وترْجُو اللهَ أن يمنَحهُ العَافيةَ بعدَ طول عَذاب. وذاتَ يوم قَالتْ لَهُ:

ألاَ تسألُ اللهَ أنْ يخفِّفَ عنْكَ المرضَ والابتلاءَ يَا أيوبُ؟

وأجابَها إجابَةَ المؤمنِ الواثق بَربِّه:

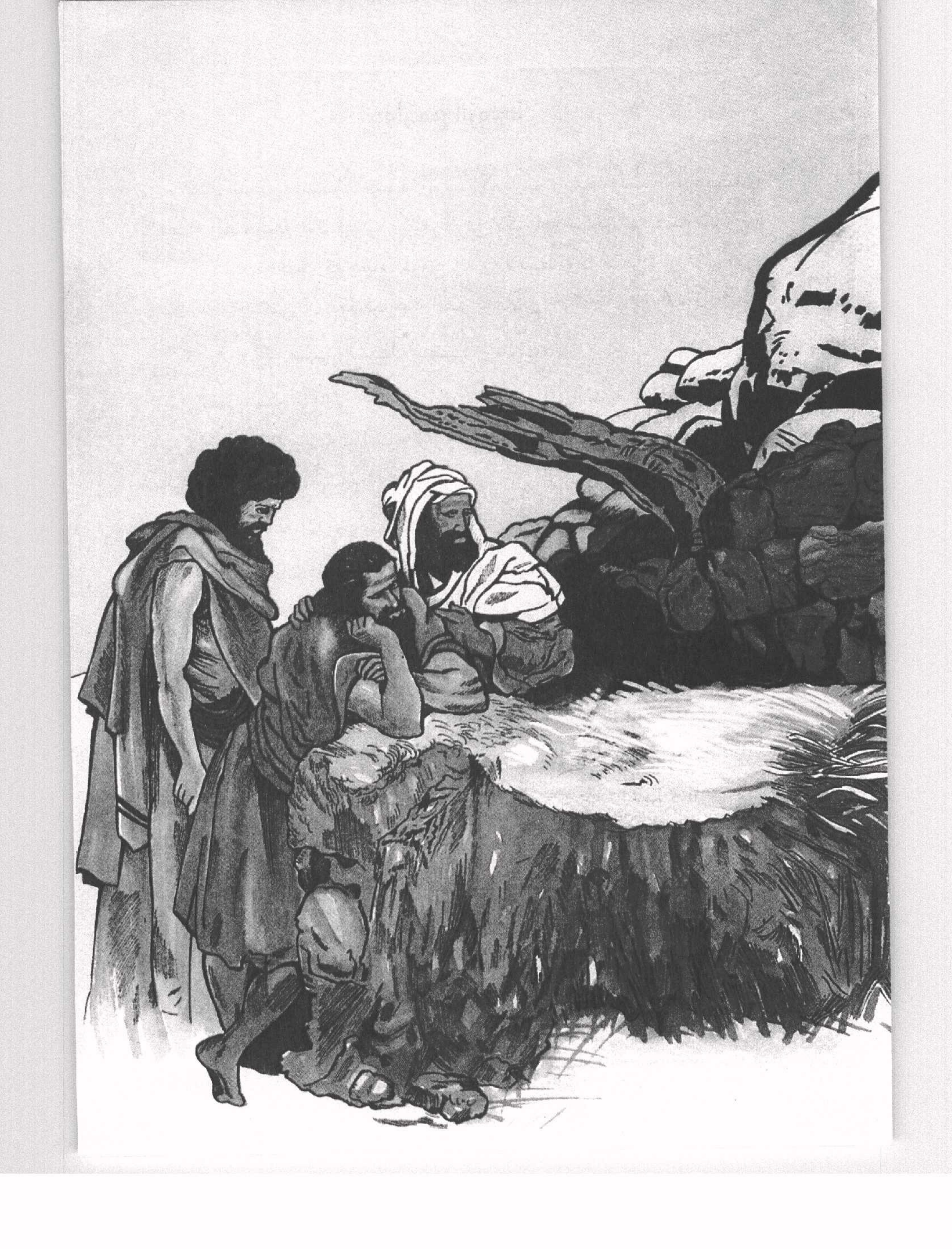
يَا زوجَتى الوفيةُ، وَالله إنىِّ لأسْتَحيى منَ الله أَنْ أطلُبَ منه ذلك.

وتقُولُ الزوجَةُ فى دهشة: ولماذَا يا أيُّوبُ؟

قَال لهَا بإيمَان صَادق:

إن اللهَ عزَّ وجَلَّ قدْ أعطَانى الصِّحةَ والعَافيةَ سَبعينَ عَامًا، فَلنْ أدعَوهُ أنْ يخفِّفَ المرضَ إلا إذَا مَضتْ عَلىَّ سبعُونَ عامًا مثلُهَا وأنَا مَريضٌ قَعيدٌ.

لَكَ اللهُ يَا أيوبُ، يَا مثَالَ الصَّبرِ والإيمَان والثَّبات، أتستَحْيى منَ الله أن تطلبَ منْهُ أنْ يكشفَ عنكَ البلاَءَ، إلا إذَا مَضتْ مُدةٌ تساوى مُدَةَ صَحتكَ وعَافيتكَ؟ وَهلْ ضَمنْتَ أنْ تعيشَ سَبعين عَامًا أخْرَى تقضيهَا كلَّهَا فى ذَلكَ العذَابِ الأَليم؟



المؤمنون مع أيوب

يقُولَ العُلماءُ أن زوجَةَ أيوبَ لَم تتركُهُ لحظةً واحدةً طوالَ مُدة مَرضه، فهِيَ زوجَةٌ مؤمنةٌ لنبيٍّ صَابر، رَغمَ ما أُصيبَ به منَ ابْتلاء، لَقدْ فَقدَ المالَ والأولاَد والصِّحةَ، وعَجزَ عَنِ القيَام والمشْي، وابتعَدَ عنهُ النَّاسُ، ورغمَ ذلكَ كُلِّه كانَتْ زَوْجَتُهُ تجلسُ إلَى جَانبه، تروى عَطشَهُ، وتُشبعُ جُوعَهُ بمَا يَرزُقُ اللهُ منْ فُتَات الخبز، وكَانَ هُناكَ رجَالٌ ثلاثةٌ قدْ آمنوا بنبَّوة أيُّوب ودَعوته للإيمَان والتَّوحيد، يقولُ العُلماءُ أن الأولَ اسمُهُ بَلدرُ، والثَّانى اسمُهُ أوليفَرُ، والثالثُ اسمُهُ صَافرُ، هؤلاء الثَّلاثةُ، آمنُوا بنبوَّة أيوبَ وربِّ أيُّوب، وبدْعوة أيُّوب للتَّوحيد. فلمَّا حَلَّ به الابتلاءُ كَانَتْ قلُوبهمْ مُؤمنَةً، ولكنَّهمْ فِي الظاهر كَانُوا مَعَ أهْلِ القَرية، يردِّدونَ الأَسئلةَ التى لا تنتَهى عَنْ أيُّوب وحالِ أيُّوب:

هَلْ يمرَضُ نَبيٌّ الله؟ هَذا غيرٌ مَعقولٍ!! وخَاصةً إذا كَانَ المرضُ بهَذَا الشَّكلِ الشَّاملِ اللعينِ!!

كَانُوا مُؤمنينَ، ولكنْ لاَ يذهبُونَ إلَى أيُّوب، ولاَ يظهرُونَ لَهُ شَيئاً منَ المساعَدَة والمواسَاة. وظَلَّ أيُّوب طَريحَ المرَضِ سَبعَ سنوات وعدَّةَ أشهر، يَستَحْيى أنْ يطلبَ منَ الله أن يزيلَ عَنهُ الأذى ويُذهِبَ عنهُ المرضَ، ويَرْزُقَهُ الصِّحةَ والعَافيةَ.

قَالَ أُناسٌ: لاَ يُوجَدُ عَلَى وجْه الأَرض أكَرَمُ عَلَى الله منْ أيوبَ، وَقالَ آخرونَ: لَوْ كَانَ لربِّ أيوبَ فيهِ حَاجَةٌ ما صَنعَ بِه هَذَا!!

وأيوبُ يسمعُ كلامَ النَّاسِ، ويبكى، ويَهُمُّ بأنْ يدعوَ اللهَ أنْ يمنحَهُ الشِّفاءَ، ثُمَّ يتراجعُ.

وفكَّرَ المؤمنونَ الثَّلاثةُ فى مَرضِ أيوبَ وطولِ ابتلائِه، فانطلَقُوا إليه وقَالُوا:

يا نبىَّ الله، نحنُ مُؤمنُونَ بربِّكَ وإلهكَ، ولَكنْ لماذا لاَ تدعُو اللهَ كُلَّ هذه المدة الطَّويلةِ، أليسَ اللهُ قريبًا منكَ يَسمعُ ويرَى، يا أيوبُ، إذا كنُتَ نبيًّا حقًّا فادْعُ اللهَ أنْ يكشفَ ما بكَ منْ ضُرٍّ، إنَّ اللهَ يُجيبُ دعوةَ الدَّاعى إذَا دعَاهُ، فهلْ تتكبَّرُ أن تدعُوَ ربَّكَ، ألاَ تثقُ بقدْرته علَى شفائكَ؟

وزَلْزَلَتِ الكَلماتُ كيانَ أيُّوبَ عليهِ السَّلامُ، فبكَى، وأقبلَ علَى ربِّه يتضرع إليه، ويستغيث به، والمؤمنون الثلاثة من حَوْلِه يَسْمعُونَ دُعاءَهُ، ويدْعونَ معَهُ أن يرحَمَهُ اللهُ أرحَمُ الرَّاحِمينَ.

وكَانتْ رَحمَةُ الله أقربَ إليه منْ حَبلِ الوَرِيد، فقد استجابَ اللهُ، وشيْئًا فشيْئًا رُفِعَ عنهُ البلاءُ، أمَامَ أنظارِ زوجتِه والثَّلاثة المؤمنينَ. وأمَرهُ اللهُ أنْ يضربَ الأرْضَ برجْله، ففعلَ فإذا بنبعِ ماءٍ ينبجسُ منْ تحت أقدامه فيأمُرهُ اللهُ أنْ يشربَ منهُ ويغْتسلَ، وعلَى الفوْرِ عَادَ كَهيئته الأولَى صحةً وحُسنًا وجمَالاً. فقَالَ الجميعُ:

نَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولهُ الحمْدُ، وهُوَ علَى كُلِّ شىءٍ قَديرٌ.

وفاءُ الزوجةِ الصالحةِ

عَادَ أيوبُ عليه السَّلامُ وَسيمًا جَميلاً مُعافًى منَ الأسْقام، بَلْ إنَّ اللهَ منَّ عليه بالخَيْرِ الكثير، فرَدَّ اللهُ عليْـه أهْلَهُ وولَدَهُ بلْ وضاعَفَ ذَلكَ لَهُ، جَزاءَ صَبره وإيمانه وثَبَات يَقينه بالله.

ولَمْ تكُنْ ليَّا بنتُ يعقوبَ عليه السَّلامُ مجرَّد زَوجة فقَطْ، بَل كَانَتْ زَوجةً صَـالحة وفيـةً، ولمَ لاَ؟ أليستْ بنتَ نبيٍّ صَـالحٍ هُو يَعقُـوبُ عليه السَّلامُ، وأختَ نَبيٍّ صَـالحٍ هُو يوسُفُ عليه السَّلامُ؟ ولَقدْ كَـانَ لهَا شَأنٌ هيَ الأخْرَى مَعَ الشَّيطان إذْ لقيهَا ذَاتَ مرَّة، فقَالَ لهَا:

كَيفَ تَعيشينَ مَعَ ذَلكَ السَّقيمِ المرِيضِ أيتُهَا المرأةُ؟

وإلَى متَى تتحمَّلينَ ذلكَ؟

فقالتْ لَه، بقلب ثَابت، ويقين راسخ:

يَا عَـدُوَّ الله؟ اغرُبْ عَنْ وَجـهي، إنَّ السـقـيمَ المريضَ هُو نبيُّ الله وَحبيبُهُ، والصَّابرُ عَلَى ابتلائه.

فَقالَ لَها إبليسُ صَادقًا هذه المرَّةَ، وهُو دائمًا كَذوبٌ:

حَقًّا يا «ليَّا» حَقًّا، إنَّك صَدِّيقةٌ ابنةُ الصِّديق، وأخْتُ الصِّديق.

قسمٌ وتحلةُ القَسمِ

نَعودُ إلَى مَشهد المؤمنينَ الثَّـلاثَة وهمْ يُحيطُونَ بأيوبَ عليه السَّلامُ، وكَانتْ زَوجَـتُهُ قَـدْ ذَهبتْ لتعـمَلَ ولَتحْـصُلَ عَلَى طعَـام لهَا ولَزوْجـهَا المريض. لأنَّ الأنبياءَ لاَ يأكُلونَ الصَّدَقـات، وكَانتْ «ليَّا» قَد تأخَّرتْ عَنْ مَوعـدهَا، وعندمَا عَادتْ وَجـدَت الرِّجالَ الثَّلاثـةَ يُجادلونَ أيوبَ في أنْ يَدعُوَ ربَّه ليبرئَهُ منْ مَرضه، وجاءَتْ برَغـيف خُبز زائد عمَّا كانَتْ تَأتي به كُلَّ مرَّة، فـظَنَّ أنَّ زوجَتَهُ قَـد ارتكبتْ في ذَلكَ مَـا لا يَجُوزُ، أو قَبلَتْهُ كَصـدقَة، وكَانَ الشَّـيطانُ يوسْوسُ لَهُ أنَ يقولَ كَـلمةً محظُورةً ليـبرأَ من مَرضه، فلمَّا رَأى زوجَتهُ قادمةً ومعهَا الخبزُ، فإذا بهَا أيضًا تقولُ لَهُ:

إلَى مَتَى هَذا الصَّبرُ يَا أَيُّوبُ، كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَقُولُها ثُمّ اسْتَغفِرْ ربّكَ فَيَغفِرَ لَكَ.

قَالَ أيوبُ:

والله لأَضربنّك مائةَ ضَربة إنْ بَرِئتُ.

وبَعدَ أَنْ شفَاهُ اللهُ، كَانَ لاَ بدَّ أنْ يبرَّ بقسمه، فيضربَ زَوْجَتَهُ مائةَ ضَربة، ولكنْ رحمَةُ الله واسعَةٌ، والزَّوجةُ الوفيَّةُ لاَ تستَحقُّ ذلكَ العقَابَ. وأمرَ اللهُ أيُّوبَ عَليهِ السَّلامُ، أنْ يأخُذَ ضِغْثًا، والضِّغْثُ هوُ الحزمَةُ الصَّغيرةُ منَ الحشَائشِ.

فَأخذَ أَيوبُ - بأمرِ الله - حزْمةً فيهَا مائةُ عُود، وضربَ زوْجتَهُ بهَا ضَربةً واحدَةً خفيفَةً، وبذَلكَ لاَ يكُونُ حانثًا في يَمينه، وهيَ رَحمةٌ منَ اللهِ تَعالَى بالزَّوجَةِ الصَّالحَةِ الرَّاضيَةِ، ولَيسَ جزَاءُ الإحسانِ إلا الإحْسانُ.

وَفاةُ أيوبَ عليهِ السلامُ

عَاشَ أيوبُ ثَلاثًا وتسعينَ سنَةً، وتركَ كثيرًا منَ الأبناء، كَانَ فيهمْ ابنهُ «بشرٌ» الذى بَعثَهُ اللهُ نبيًّا ورسُولاً، وسمَّاهُ فى القرآنَ «ذَا الكفْلِ»، وأَمرهُ بالدَّعوةِ إلَى الله، واستَمرَّ «ذُوالكفلِ» ينشرُ دعوَةَ التَّوحيدِ حتَّى مَاتَ وعمرُهُ خَمسٌ وسبْعونَ سَنةً.

ومنْ أولادِ أيوبَ «حومَلُ» الَّذى أَوصَى أَيوبُ لهُ بأمواله عندَ وفاته.

وتستمرُّ مَسيرةُ الأنبيَاء، يُعطونَنَا الأُسوةَ والقُدوَةَ، ويُعلمونَنَا الصبرَ علَى مكاره الحيَاة، فَلنتأملِ الدَّرسَ والعبرَةَ منْ حيَاة أيوبَ، وكيفَ أنَّ التوكُّلَ علَى الله والرُّكونَ إليه هُو أقْوىَ سلاَحٍ يواجهُ به الإنسَانُ مَسئولياته المخْتلفةَ التى حَمَّلَهُ اللهُ إيَّاهَا لإعْمَارِ الأَرضِ وازْدهَارِ الحيَاة.